الفصل الثاني:

طرق اكتساب المعرفة في القرآن الكريم

تتعاون في عمليّة اكتساب المعرفة وسائل الحس الظاهرة والباطنة، وموازين العقل الفطرية والمكتسبة، ومعارفه التي اكتسبها بنفسه أو تلقّاها من غيره؛ يضاف إلى ذلك ما يوحي به الله تعالى لأنبيائه من معارف تكون يقينيّة. وأول طرق اكتساب المعارف هو الإدراك الحسيّ، فالحواس هي بمثابة منافذ تطلّ منها كل القوى المدركة، فهي الناقل لما تحسه نحو منطقة الإدراك، بعدها يتمّ التسجيل، ثمّ تبدأ العمليات الإدراكيّة. والإدراك هو وصول مثال حقيقة المدرَك إلى المدرِك. ولوصول العلم إلى النفس المدركة مراتب، فالإحساس للحواس الظاهرة، كما أنّ الإدراك للحس المشترك أو العقل، والحسّ المشترك هو الحواس الباطنة وهو الخيال والواهمة والحافظة والمتخيّلة.

أولاً: الإحساس:

١ - مفهوم الإحساس:

الإحساس: أول مراحل وصول العلم إلى النفس المدركة، وهو إدراك الشيء بإحدى الحواس، وهو إدراك للشيء مكتنفاً بالعوارض، واللواحق الماديّة؛ ونسبة خاصّة بينهما وبين المدرَك. ويكون الإحساس للحواس الظاهرة، وللعقل، فهو كمال يحصل به مزيد كشف على ما يحصل في النفس من الشيء المعلوم؛ من جهة التعقّل بالبرهان أو الخبر.

ولدىٰ الإحساس مجالٌ معرفيٌّ خاصٌّ به؛ حيث يكون أول مرحلة تدخل فيها المعرفة إلىٰ النفس، وأول انفعال تتأثر فيه، وهذا يعني أنّه أول عنصر وجدانيّ، ومن ثمّة كان الإحساس طريق معرفتنا بالعالم الخارجي، والحواس أبواب المعرفة. تقول شممت الشيء ولم أدرك ريحه، فمجرد الاتصال الحسيّ لا يعدّ إدراكاً؛ بل لا بُدَّ من انضمام العقل إليه. من ذلك قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٨]؛ فالنظر تحديق العين نحو المنظور إليه، وهذا إحساس العين؛ حيث تستقبل العين صورة المرئي. ويرىٰ المشركون النبيّ ﷺ رأي عين؛ ولكنّهم لا يبصرون بصر إدراك واعتبار وتوسم.

فالنظر تقليب للحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته؛ والرؤية من توابع النظر، ثمّ البصر، ثمّ البصيرة وهي حركة القوّة المدركة لطلب العلم. لكنّ عمليّة الإحساس أي الرؤية، لم تتعرض لآفة أو تعطيل، فالخلاف في معنىٰ المنقول عبر حاسة العين؛ ومحل النزاع في العملية الإدراكيّة، لا في عمليّة الإحساس. وإلا لِانتفىٰ الخطاب؛ لأنّه موجّه ليستقبل بحاسة العين. وليس ثمّة ما يمكن أن يقال هذا إدراك؛ ما لم يكن ثمّة حكم علىٰ المحسوس، ويشترك الحكم والعقل والحسّ في إصداره في ما يتعلّق بالمحسوسات. لذا نجد أنّ الحواس إذا عرضت في مقام ذكر أبواب العلم لا بُدَّ أن تقرن بالفؤاد أو القلب، وتعطيلها تعطيل للعقل؛ فالإحساس مرحلة أولىٰ للمعرفة، لكن من غير إدراك، فهو أداء وظيفيّ غرائزيّ بهيميّ لا أكثر، ومن غير محلّ الإدراك؛ يكون مجرد تأثر بمثيرات خارجيّة والتفاعل معها غرائزيّاً.

٢- تكون الإحساس:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨] فيه دلالة واضحة على أنّ الإنسان خلق لا علم له بشيء من المعقولات، ولا المحسوسات البتّة. فهي إشارة إلى مبادئ العلم الذي أنعم الله بها على الإنسان، فمبدأ التصوّر هو الحسّ، والعمدة فيه السمع والبصر، وإن كان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشمّ فأهميّتها معرفيّاً دونهما. فأول ما يخلق في الإنسان حاسّة اللمس؛ فيدرك بها أجناساً من الموجودات، فاللمس قاصر عن الألوان والأصوات، ثمّ يخلق البصر فيدرك به الألوان والأشكال وغير ذلك، ثمّ ينفتح له السمع فيسمع الأصوات، ثمّ يترقّى في مدارك هذه الحاسّة على التدرّج، ثمّ يخلق الذوق فيدرك به تفاضل الطعم؛ وكذلك الشمّ وهو أكمله. ثمّ يخلق فيه التمييز وهو طور آخر من أطوار وجوده؛ ثمّ يترقّى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل؛ وأنّ حكم الشيء حكم مثله، ولا يجتمع الضدّ مع ضدّه، وإذا صدق أحد النقيضين كذب الآخر، ونحو ذلك من العلوم الضرورية، ثمّ يتطور إلى طور يستنتج العلوم النظريّة من الضروريّة، ثمّ يترقّى في مراتب الإدراك.

٣- دور الإحساس وقيمته المعرفيّة:

لا تعد الحواس وحدها إلى المعرفة، فالإحساس أحد طرق تحصيل المعرفة الإنسانيّة؛ فدور العقل الاعتبار والقياس والتعميم؛ فلا بُدَّ أن يعتمد على المبادئ الحسيّة، وكذلك الخبر لا بُدَّ له في أصله الإخبار عن قيمة حسيّة،

فالإحساس باب للعقل نحو المعرفة في القرآن الكريم؛ حيث كانت المعجزات الكونيّة مبصرة والقرآن مسموع. وتقسيم الأمور الخارجيّة إلى قضايا محسوسة وأخرى معقولة؛ لا تدرك إلا بالعقل غير صحيح البتّة. وما أخبرت به الرسل من الأمور الغيبيّة من وجود الجنّة والنار والملائكة والجنّ هي قضايا محسوسة، وكذلك ما يتنعّم به أهل الجنّة، ويعذّب به أهل النار أمور حسيّة؛ وليست أموراً عقليّة؛ صوّرتها الرسل على أنّها حسيّة: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٧]. فالروح وحتى ذات الله تعالى يمكن رؤيتها بالأبصار ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فنفي الإحاطة يلزم إثبات الرؤيّة، لكن لما كانت هذه الأمور وما هو في عالمنا غائباً سمّيت غيباً؛ في مقابل عالم الشهادة المشاهد والمعين. والعقل يكتسب معلوماته من الواقع؛ بوسائل اتصاله بالعالم الخارجيّ، وهي الحواسّ التي يتركّب منها الإحساس؛ أي القوّة الكامنة في الحواس.

فالإحساس يختص بطريق الحواس بما هو خارج الإنسان، ويستوعب كل المسموعات والمرئيّات والروائح والأذواق والملموسات. وهناك حسّ باطن يثبته الكثير؛ وهو ما يجد الواحد فينا من ألم ولذّة وحبّ وبغض، وهذه أثبتت للقلب في القرآن الكريم. وآيات الكون الواردة في القرآن الكريم؛ الاعتبار بها لا يكون إلا بالبصر والسمع، ثمّ يلي القياس والاعتبار بعد فهم ما يراد والتفكّر ثمّ التذكير. لذا كان مدار العلم على الإحساس والإدراك ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعالم الشهادة هو المشاهد المحسوس؛ فكان هو مجال الإحساس في هذه الدنيا؛ بما فيها من آيات مخلوقة ومتلوّة. ودور العقل الارتقاء بما ورد عن طريق الإحساس لفهمه والقياس عليه، فينشأ من ذلك علوم نظريّة عقليّة خالصة؛ إذ خلق الإنسان أول ما خرج من رحم أمّه للدنيا في مبدأ الفطرة خالياً من المعارف والمعلومات لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]؛ فالنكرة سياق في النفي تفيد العموم؛ أي أنّ الطفل يخرج من بطن أمّه صفحة بيضاء معرفيّاً، ثمّ يخلق الله له الإحساس (القوّة)؛ ليستفيد بها المعارف والعلوم مع (الإدراك). فالتصوّرات والتصديقات إما أن تكون كسبيّة أو بدهيّة، والكسبيّة لا يمكن حصولها إلا بواسطة تركيبات بدهيّة، فلا بُدَّ من سبق البدهيّات؛ فكانت النفس خالية من جميع العلوم، إلا أنّه تعالىٰ خلق السمع والبصر؛ فإذا أبصر الطفل شيئاً أو سمعه مرة بعد أخرىٰ، ارتسم في مخيّلته ماهيّة ذلك المبصر أو المسموع، وكذلك سائر الحواس، فيصير حصول الحواس سببٌ لحصول ماهيّة المحسوسات في النفس والعقل.

والحاصل أنّ العلوم الكسبيّة إنّما يمكن اكتسابها بواسطة البديهة؛ وحدوث البديهة يكون عند حدوث تصوّر موضوعاتها ومحمولاتها، وحدوث التصوّرات إنّما كان بسبب إعانة هذه الحواس علىٰ إحداثها، فظهر أنّ السبب الأول لحدوث هذه المعارف في النفوس والعقول؛ هو أنّه تعالىٰ أعطانا هذه الحواس، فأصبحت سبباً لانتقال نفوسنا من عدم العلم بشيء قط؛ إلىٰ مراحل من العلم المتفاوت بين الناس".

٤ - مجال الإحساس:

تمكّننا حواسّنا من الإحساس بما حولنا من أشياء، وفحصها، وتميّزها عن غيرها، بحيث يتسنى لنا تطبيق معطياتها في استعمالاتنا، على أنحاء شتى لمواجهة مقتضيات هذه الحياة، ولو تغيّرت حواسّنا؛ لتغيّرت إحساساتنا، ولتغيّرت مظاهر الأشياء، ونظمها الخارجيّة في نظرنا تغيراً تامّاً. فلو كانت حاسة السمع أقوى مئة مرة لسمعنا أصواتاً هائلة ومتعددة وضجيجاً شديد الإزعاج، ولو كانت العين أحَدّ لأبصرنا عوالم أكثر حولنا بل لضاقت بنا الحياة لما تحوي من مرئيّات. فأهمّ خصائص الإحساس اتصاله بالمادة، وعالمه هو عالم الشهادة كما ورد في القرآن الكريم، وهذا إثبات لواقعيّة العالم الخارجيّ؛ مع تأكيد عدم استقلال الإحساس وحده، وإنّما الحكم للقوّة المدركة وهي العقل، والعقل لا يحكم من غير أن ينقل له الإحساس. فمجال الحواس هو الإحساس بما ورد في عالم الشهادة من غير عالم الغيب، وما لا تصل إليه الحواس لا يكون له وجود في عالم الشهادة، ومجاله إمّا أن يكون ذهنيّاً أو غيبيّاً. وما لا يمكن الإحساس به مطلقاً؛ هو ما كان ذهنيّاً لا يوجد إلا بالعقل، وما قَصُر وجوده في العقل حصر به، فلا وجود له في غيره، وما كان غيباً فهو محسوس، إلا أنّ مجال الحواس في الدنيا هو الشهادة فقط. فالإحساس خادم للعقل، والخادم لا يكون بديلاً عن سيده بل معيناً له، فهو يمثّل جزءاً من العمليّات المعرفيّة، بل بدايتها. وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى ما هو كونيٌّ من عالم الشهادة كي يعتبر الناس بما خلق الله تعالى ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾

إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقّة: ٣٨، ٣٩]، وقال: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢]؛ أي يوم الحساب يرىٰ ما لم يكن يؤمن به، ويرىٰ ما لا طاقة له برؤيته يوم الشهادة، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وهنا يكون النظر إمّا بالرؤية، أو بسماع الأخبار والنظر إلىٰ الآثار، وكل ذلك لفهم سنن القيام والسقوط؛ ونشأة الحضارات والأمم والقوىٰ واندثارها.

ثانياً: الإدراك

هو تمثّل حقيقة الشيء عند المدرِك؛ يشاهد بها ما يدرك به، فهو كمال حاصل في النفس؛ يحدث بسببه مزيد من كشف ما يحصل في النفس من الشيء المعلوم من جهة التعقّل بالبرهان أو الخبر، وهذا الكمال الزائد علىٰ ما حصل في النفس بكل واحدة من الحواس هو المسمّىٰ إدراكاً. ثمّ هذه الإدراكات ليست بخروج شيء من الآلة المدركة إلىٰ الشيء المدرَك؛ ولا بانطباع صورة المدرك فيها، وإنّما هي معنىٰ يخلقه الله تعالىٰ في تلك النفس المدركة أي "معنىٰ قائم بالعالم."

وطور الإدراك هو طور بعد الإحساس، يتزايد ويتناقص بقدر تفاوت قدرات الناس، وأول أطوار الإدراك التمييز وهو مراتب؛ وفيه يدرك أموراً زائدة علىٰ الإحساس، لم تكن حصلت له من قبل، ثمّ يترقّىٰ إلىٰ طور آخر يستنبط فيه العلوم النظريّة؛ من تلك الضروريّة التي تقدّم علمه بها، ثمّ يترقّىٰ في هذا الطور من أمر إلىٰ أمر فوقه وأغمض منه، نسبة ما قبله إليه كنسبة

الحسّ إلى العقل، ثمّ وراء ذلك كلّه طور آخر؛ نسبة ما قبله إليه كنسبة أطوار الإنسان إلى طور العقل أو دون هذه النسبة، فينفتح فيه عين يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمور" العقل معزولة عنها كعزل الحسّ عن مدركات العقل، وهذا هو طور النبوّة."

والإدراك على معنيين؛ الأول: وهو مرتبة من مراتب العلم؛ أي وصول مثال المعلوم إلى النفس المدركة، والمعنى الثاني: هو مطلق الإدراك أي كلّ عمليّات وصول العلم ومراتبه. فالأول هو الإدراك المطلق وقد شرح في بداية المطلب، والثاني هو مطلق الإدراك؛ وهذا يمثّل ما نعبّر عنه بالقوّة العالمة أو العارفة في الإنسان. ولوصول العلم في الإنسان مراتب فصّلناها سابقاً نكرر ذكرها من الأدنى إلى الأعلى وهي: أولها الإحساس ثمّ على التوالي: الشعور، والإدراك، والحفظ، والتذكّر، والذكر، والفهم، والفقه، والدرايّة، واليقين، والذهن، والفكر، والحدس، والذكاء، والفطنة، والكيس، والرأي، والتبيّن، والاستبصار، والإحاطة، والظن، ثمّ العقل. ويعبّر عنها في مراجع كثيرة بالعمليّات التفكيريّة، أو الإدراك العقليّ أو العقل، وننبّه إلى أنّ بعضهم يجعل العقل هو محلّ الإدراك؛ ومراتب الإدراك هي قوى العقل، وهذا خلل في الاصطلاح خاصّة في حال دراسة نظريّة المعرفة. فمن المعلوم عند أهل الاختصاص في المعرفة أنّ العقل قوّة إدراكيّة والمراتب الأخرى قوى إدراكيّة مثله؛ فليس هو محلّ لها، فإذا كان هو محلّ لها فأين محلّه؟ خاصّة مع إقرارهم بأنّه صفة قائمة بعين، وليست قائمة بنفسها.

١ - محلّ الإدراك:

صرّح كثير من العلماء والفقهاء والباحثين أنّ الحواس آلات لإدراك الجزئيّات، أمّا "المدرك فهو النفس". وهذا مبنيّ على تقسيم الإنسان من حيث الخلق إلى مادة وروح، فالمادّة قطعاً هي ما يركّب الأعضاء كلّها، أمّا الإدراك فهو خاصّ بالنفس والروح، بدليل أنّ الجثث لا تدرك شيئاً. وعبّر عن محلّ الإدراك كثير من العلماء، منهم أبو حامد الغزاليّ "باللطيفة الروحانيّة" التي لا يعلم بحقيقتها أحد غيره تعالى، وهي جزء من عالم الغيب، دورها تلقّي العلوم وحفظها والنظر فيها للاستنباط منها، فإذا تتبّعنا آيات القرآن وجدنا أنّ المحلّ الذي وصف بالإدراك ونسبت له عمليّات إدراكيّة هو (القلب)، "ووفق هذا المعنى فإنّ القلب في نظر القرآن أداة من أدوات المعرفة، حيث يعتمد على مخاطبة العقل في معظم رسالاته، فقلب كل شيء خالصه، وهو أعظم شيء موصوف بالسعة وهو معدن الروح الحيوانيّ المتعلّق بالنفس الإنسانيّ، ويسمّيه بعضهم بالنفس الناطقة والروح الباطن، والقلب هو محلّ اللطيفة الروحانيّة المدركة.

فالقلب هو محل العلم والعقل والفكر والإدراك، أما كون ما يحصل في النفس "علم" فلا إشكال، فعندنا هنا محلّ العلم هو القلب، وهو الموضوع المعلوم. وانتقال مثال أو صورة أو حقيقة الموضوع المعلوم إلى محلّ العلم يكون في المادّيات بالإحساس، لكنّ إدراك حقيقته أو صورته بما يتمّ؛ أي ما هي القوّة المدركة في القلب هل هي العقل؟ لم يرد قط في القرآن بصيغة المصدر، بل بصيغة الفعل مما يثبت أنّه عرض؛ أي صفة قائمة بذات وهي

جوهره، وهذه الذات هي القلب. ووصف القلب بأنّه يعقِل ويتدبّر ويتفكّر وينظر ويبصر ويسمع، فهل كلّ هذه قوىٰ إدراكيّة أم عمليّات لقوىٰ أخرىٰ؟ عندنا مثلاً قوّة عمليّة التذكّر الذاكرة، وعندنا العقل وهو القوّة العاقلة والعمليّة هي التعقّل.

إذا رجعنا إلىٰ القرآن الكريم لا نجد أوصاف القلب الإدراكيّة إلا بصيغ الفعل، فإن قلنا بما جرت عليه العادة: إنّ العقل هو قوّة الإدراك الكامنة بالقلب؛ أي هو العاقل المفكّر المتدبّر، فهل الذاكرة والحافظة والذكاء من العقل؟ أم هي قوىٰ أخرىٰ خارجة عنه؛ لا منه؟

لكي نفهم المسألة نرجع لتعريف "العلم" الذي أقررنا بأنّ محلّه "القلب" -وهنا لا نفرّق بين العلم والمعرفة والإدراك؛ إذ المراد مطلق ذلك كله- يطلق علىٰ ثلاثة معان بالاشتراك. أولها: يطلق علىٰ نفس الإدراك. وثانيها: علىٰ الملكة المسمّاة بالعقل في الحقيقة. وهذا باعتبار أنّه سبب للإدراك، فيكون من إطلاق السبب علىٰ المسبب. وثالثها: علىٰ نفس المعلومات. أمّا تعريف العقل فكان: القوّة المهيّأة، والملكة الحافظة والمستحضرة للمعلومات. فهو بمعنىٰ قوّة خاصّة لها علميّات خاصّة، تتكامل مع غيرها لكن تفارقها. وبمعنىٰ يطلق علىٰ جميع النشاطات الإدراكيّة والفكريّة.

٢- مفهوم القوّة المدركة:

ورد في القرآن الكريم أنّ القوّة المدركة هي القلب؛ أي اللطيفة الروحانيّة، ومن عمليّاتها التعقّل والتدبّر والتفكّر والنظر، وكلّها موجودة في

القلب الجسميّ. لذا نجد العلماء يعرّفون العقل بأنّه: القوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويُطلق على العلم الذي يستفيده الإنسان عن طريق العقل "عقل".

فالقرآن ذكر فعل العقل بصيغة "تعقلون، يعقلون، نعقل"، ولا بدّ للفعل من فاعل وهو محلّ التعقّل، وقد نصّ على أنّه القلب؛ فكان القلب هو المتعقّل والعاقل والمفكّر والناظر والبصير. وهذه كلّها قوى الإدراك والعلم، ولهذه القوى أفعال إدراكيّة؛ سمّيت بحسب طرائق تحصيل العلم في النفس، فنجد أنّ تعريف الفكر هو: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكّر جولان تلك القوّة. فالقوّة المدركة واحدة ولها حركات أو أفعال، وبحسب حركاته يتسمّى الفعل؛ وذاك مرتب على العلاقة بين المعلوم؛ وما ينتج عنه؛ وطرائق البحث فيه. فالعلم يحصل بعد تروٍ وانتظار وفكر، لأنّ العلم يحصل بعد فرك للمعلومات وبصيرة، لأنّها يقين لدرجة الإبصار والمعاينة؛ أي تبصّر ما غاب عن الحواس، وسمّيت إدراكاً لأنّها تلحق بالمطلوب وتدركه؛ أي تصل إليه. ومن خلال الاطلاع على الكثير من المراجع؛ تواردت مصطلحات معرفيّة حاولنا ضبطها لفهم العمليّات المعرفيّة، فقد أطلق على القلب بأنّ فيه لطيفة ونور وقوّة وغريزة وملكة وهيئة واستعداد وطاقة وقدرة.

ولكي تتضح الصورة لا بدّ من تحديد المصطلحات أكثر، وذاك لشدّة التداخل المعجميّ بينها، غير أنّ لكل واحد استعمالاً يتميّز بمراعاة صفات ومعانٍ زائدة عن غيرها، ولأنّ بعضها قد بُيِّن قبلاً، فسنحاول جمعها وبيان بعض الفروق: قولهم القلب مع إرادة الجانب الروحانيّ فيه، غالب من عرفه لم يخرج عن كونه هو المدرك. فالقلب اللطيفة الروحانيّة العالمة المدركة، هي

النفس المدركة والروح العالمة وهي الفؤاد واللبّ والحجر والنهى والبصيرة. وهذا كلّه يمثّل محلّ مطلق الإدراك، ولمحلّ الإدراك أسماء أخرى وهي الذهن والنفس، فيكون القلب هو الذهن وهو النفس بمعنى واحد، إلا أنّ النفس سمّيت بذلك لكونها متصرّفة أي فاعلة، والذهن لكونه مستعداً للإدراك. أمّا العقل فعرّف على أنّه قوّة متهيّئة لقبول العلم، وللعلم المستفاد بتلك القوّة. والفهم: هو هيئة تتحقّق بها معاني الخطاب. فالحاصل أنّ هناك معلوماً يُتصل به بالحواس إن كان خارجياً، وبقوى إدراكيّة إن كان داخلياً؛ وهي قوى استرجاع ما كان محفوظاً ومخزناً، ثمّ أفعال تستنبط مما هو مخزن، وأخرى تعي وتستوعب، وهي تلي الإحساس مثل الشعور والإدراك والفهم. بعدها يكون التخزين، وبعدها الفحص والبحث للإنتاج، فتنشأ علوم زائدة عما نقل عبر الحواس من أخبار أو إحساس مباشر. وبعدها تطبيق تلك العلوم وضبطها، وهذه خلاصة وصول العلم كما بيّنا في مراتب العلم.

هنالك "محلّ" للعلم والمعرفة: له قابليّة للإدراك واستيعاب العلوم والمعلومات، وهذه القابليّة هي استعداده وتهيّؤه لذلك فسمّي المحلّ (ذهناً). وهذا المحلّ هو الوسيلة والأداة والآلة ومحلّ الفاعل، ولها متعلّق بالجارحة وهي القلب بطبقاته من فؤاد ولبّ وصدر. والمحلّ فيه "قوّة": وهي الملكة والغريزة، وهي المتهيّئة للفعل والعمل والنشاط والحركة، تصدر عنها صفات ذاتية فعندنا (فاعل)، و(مفعول)، والعلاقة بينها حال وقوعها تسمّى (فعل)، وكي يقع (الفعل) من (الفاعل) على (المفعول به) يلزم قوّة. وهي كامنة في (الفاعل) المستعدّ للفعل ولكن لا يوجد فعله بعد. و"القوّة"؛ هي كون الشيء

مستعداً لأن يوجد أو لا يوجد، هذه القوّة هي العقل والفكر الفهم والنظر والفطنة. و"الفعل"؛ كون الشيء خارجاً من الاستعداد إلى الوجود. قال الجرجانيّ عن العقل: هو قوّة للنفس الناطقة، والقوّة العاقلة غير النفس الناطقة، والفاعل في التحقيق هو النفس. وقيل سمّيت النفس عقلاً لكونها مدركة، وذهناً لكونها مستعدّة للإدراك. فالنفس هي عقل باعتبار "الفعل"، وهي ذهن باعتبار"القوّة"؛ أي القابليّة الصادر منها ذلك الفعل.

في معجم دقائق اللغة: استعداد النفس لاكتساب العلم يسمّى (ذهناً)، وقوّة ذلك الاستعداد تسمّى (فطنة). (والحافظة) هي القوّة التي تحفظ ما تدركه القوّة الوهميّة من المعاني، و(الذاكرة) هي القوّة التي تستحضر المعاني التي وعتها (الحافظة). وفي تفسير ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١] قال أحد المفسّرين: يراد بالقلوب هنا القوى الداخليّة في الإنسان، المخلوقة للفهم وللحفظ وللتذكّر، بتخزين صور الأشياء وقضايا المعرفة كليّاتها وجزئيّاتها، ولتخيّل صور ومركبات غير مشهودة، للإبداع والابتكار، ولإدراك المعاني والبحث عن حقائق الأشياء.

وفي هذه القوى الداخليّة المعرفيّة والإدراكيّة موازين فكرية؛ مؤهلة بالتكوين الربانيّ؛ الذي فطر الله عليه للتمييز بين الحقّ والباطل، والخير والشر، ولقياس الأشباه والنظائر، والحكم على الغائب منها بمثل المشهود منها، وللاعتبار والاستدلال، والفهم والموازنة والحكم، حتى لا تسقط الإرادة فريسة الأهواء والشهوات. فهذه "القوّة" هي غريزة لصدور صفات ذاتيّة منها، وهي الملكة لاستحكامها؛ وإن لم تستحكم بعض القوى كانت عبارة عن

"حالة"، وبهذه القوّة طاقة وقدرة على النشاط والحركة والعمل والفعل.

فالعقل قوّة فعلها التعقّل، وبعد حصول التعقّل يقال "عقل"، وهذه "هيئة" للعاقل، فلا يوصف بها إلا بعد حدوث المثال بالنفس. فالمدرِك هو القلب الذي فيه يحلّ مثال حقائق الأشياء، ويتمثّل المدرَك في حقائق الأشياء، والإدراك هو حصول المثال في المحلّ، فوصول مثال المدرك إلى القلب يسمّى إدراكاً، وقد كانت الحقيقة موجودة، والقلب موجوداً، ولم يكن الإدراك حاصلاً، لأنّ الإدراك وصول الحقيقة إلى القلب. ونسمّي هذا الحصول أو الوصول "الهيئة".

نخلص إلى جمع ما سلف عندنا حول الإدراك "الجارحة" "الآلة"؛ وهي القلب بمعناه الماديّ. ثمّ "المحلّ" (اللطيفة الربانيّة المدركة) وهو بالقلب، ثمّ "قابليّة المحلّ" (الذهن) وهي استعداد النفس القادرة المدركة، ثمّ "القوّة" لذلك الاستعداد، ثمّ "الفعل" (التعقّل، التفكّر)، وهو نشاطات العقل، والعمليّات الإدراكيّة، ومراتب وصول العلم، وحالة وصول العلم تسمّى "هيئة" (عاقل، مفكّر) وهي تحقق العلم وبالنفس، فالفاعل هو النفس وبالذات (القلب)، والقابليّة للفعل (الذهن)، والقوّة على الفعل (العقل)، والفعل (التعقّل)، والمفعول به (المعقول)، والهيئة (العاقل).

٣- العمليّات الإدراكيّة في القرآن الكريم:

نبحث هنا في قوى الإدراك وأفعالها، مع بيان الفروق في ما بينها في القرآن الكريم، ولأنّ ما ورد فيه كان بصيغة الفعل فقط؛ فالبحث سيكون في

الأفعال؛ أي النشاطات الإدراكيّة، أو أعمال القلب الإدراكيّة. أولها التعقّل: وهو وظيفة وفعل لقوّة هي (العقل)، ولفظ "العقل" ليس له وجود في القرآن، وإنما يوجد ما تصرف منه نحو "يعقلون، وتعقلون"، كقوله تعالى ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد: ١٧]، وقد ورد من مادّته بصيغة الفعل في تسعة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، وأكثر ما ورد "أفلا تعقلون" في ثلاثة عشر موضعاً، بمعنى أليس لكم ذهن تفطنون به لقبائح أفعالكم وأقوالكم.

والعقل مصدر، وإن كان سيبويه يعدّه صفة؛ لأنّ المصدر لا يأتي على وزن مفعول. وسمّي العقل عقلاً لأنّه يعقّل صاحبه عن التورّط في المهالك؛ أي يحبسه. ونتيجة لذكر القلب في القرآن بوصفه اسم جنس مفرداً ومجموعاً، بخلاف العقل الذي ورد مفرداً مشتقاً من اسم جنس، استخلص بعض الباحثين أنّة لا يوجد شيء مجسّم في جسم الإنسان لذات اسمها (العقل)، أمّا القلب فإنّ هناك شيئاً لذات اسمها (القلب)؛ وهو تلك المضغة القائمة في الصدر، الأمر الذي يدعونا للفصل بين كل من جملة تلك المعاني (العقل) و(القلب)، لنصل إلى أنّ القلب من الألفاظ المشتركة؛ ومن جملة معانيها (العقل). والخطاب موجّه إليه لتقوم به الحجّة، فلا يعرف بحال من الأحوال إلا بأفعاله، والله يبيّن لعباده ما يعقلوه بقلوبهم. ويقال العقل للهيئة، والقوّة الكامن في النفس بالقلب، و لنور القلب وبصيرته، يبدأ طريقه من حيث ينتهي طريق الإحساس، وهو المعني بقولهم غريزة يلزمها العلم بالضروريّات عند سلامة الآلات، وبه يكون التمييز والإدراك والتأمّل والفكر.

والتعقّل فهو تفعّل من العقل، وقد ورد بصيغ هي: تعقلون، ويعقلون، وعقلوه، ونعقل، على النحو الآتي: عقلوه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]. وتعقلون ويعقلون: في ستة وأربعين موضعاً؛ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. ونعقل: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]. ويعقلها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وباستقراء مواضع "التعقّل" نلاحظ ما يأتي: وروده بصيغة (أفلا يعقلون)؛ (أفلا تعقلون) ثلاث عشرة مرة، وهي أسلوب استفهام استنكاريّ، حيث ترد كلما خالف الناس واقعهم وناقضوا أنفسهم، والاستفهام للتوبيخ، بمعنى أليس لكم ذهن عاقل؛ فتفطنون به لأفعالكم، وتفهمون به الخطاب، وتعملون بما أمرتم، وتنتهون عما منعتم؛ أي: أليس لكم ذهن فتفطنون لقبح أفعالكم وأقوالكم، مثاله ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦]، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

وروده بصيغة (لعلّكم تعقلون) ثماني مرات، وهي تفيد الفعل؛ أي بمعنى لتعقلوا ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]. ووردت هذه الصيغة دائماً بعد لفظ (بيان)، أو تبيين من الله تعالى لأحكامه

وحدوده. مثال لذلك في آية البقرة سبقها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ثمّ أحكام الحيض والطلاق؛ بعدها ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤١ - ٢٤٢]؛ أي يبيّن حدوده وأحكامه؛ كيما يُعرف المقصود؛ ويعمل بالمطلوب.

والمراد بالتعقّل في جميع المواضع معنيان هما: عقل الخطاب؛ أي استيعابه بعد بيانه، والانعقال به؛ أي حبس النفس على أوامر الخطاب ونواهيه. فكان التمييز والمنع، والتمييز بالبيان الذي جعله الله تعالى في آياته، والامتناع هو المطلوب، والإنسان مخيّر فيه، فإن لم ينعقل فلا عقل له؛ أي أنّه لا يميّز النافع من الضار، والخير من الشر.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]؛ هنا كان الخطاب ثمّ سماعه ثمّ عقله ثمّ تحريفه عن علم، فأثبت لهم التعقّل قبل العمل بالخطاب؛ بل وبعد تحريفه، لكن علّقه بالخطاب وفقط؛ فلم يثبت لهم مطلق التعقّل، (عقلوه)؛ أي فهموه، ووعوا المقصود، وأدركوا المطلوب منهم، ثمّ عصوا عن قصد وتعمّد، فلم يوصفوا بأنّهم عقلاء مدحاً، بل وصفوا بأنّ لهم القدرة على عقل الخطاب، مع عدم الانعقال به؛ أي عدم الالتزام، لذا انتفى عنهم وصف "العقلاء" لاقتضاء العلم للعمل دائماً في الكريم.

ونفي العقل عن الكفار والعصاة ليس نفياً للقوّة العقليّة؛ لأنّها مناط التكليف، بل نفي للعمل بمقتضى ما تعقله من علم وصلاح، ونفي لكمال

العقل. بل إن كل موضع نفي فيه العقل؛ فالمراد العقل بمعنى العلم المستفاد بالقوّة المدركة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ وكل موضع رفع فيه التكليف فالمراد القوّة المدركة وهي العقل. فالعقل على ثلاثة معان: أولها القوّة المتهيّئة لقبول العلم؛ وهي ما يفارق بها غيره من الحيوان. وثانيها: العلم المستفاد من تلك القوّة، أو ما وضع في الفطرة والطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وثالثها القوّة الغريزيّة، المانعة والحابسة للنفس عن اتباع كل شهواتها ورغباتها، فهي المتحكّمة بالمنع أو الإذن.

وكل موضع ذمّ فيه العقل لوقوعه في خطيئة؛ فإنّما الذمّ للقوّة الغريزيّة المانعة؛ فالعقل علم وعمل، والعلم القوّة المتهيّئة للعلم، والمستفاد من تلك القوّة، وما فطر عليه العقل، أمّا العمل فهو القوّة الغريزيّة التي تمنعه عن الشر والقبائح والباطل، وتسمح بالخير والحقّ والصلاح. فأثبت الله تعالى لكلّ الناس العقل، ونفاه عن الكفار، ونفاه عن العصاة، وعن الجهّال؛ وهذا يقع على أحد معاني العقل كل واحد بحسب السياق. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ فأثبت العقل للعلماء دون غيرهم، فالتعقّل هنا بمعنى الفهم والتدبّر للأمثال، مع تطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب.

في آيات الصيام ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٢]، بعدها كان تفصيل مسائل الصيام، ثمّ ختم ذلك كله بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالغاية من فرض الصيام حصول التقوى، وبيان أحكامه لتحقيق الغرض بتمامه وكماله، فالبيان للحقّ من دواعي فهمه وزيادة في حجّيته وإعانة عليه. وكذلك فإنّه يقيم الحجّة عليهم؛ بأن يتّقوا العقاب حال المخالفة، فكان بيان الحقّ وتفصيله للعمل على اتّقاء الأخطاء والمعاصي والشرّ الناجم عنها.

بعد الآية كان السياق كالآتي ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثمّ مسائل الجهاد والحجّ بعد ذلك ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ثمّ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، بعدها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثمّ ختمت بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ أي بيان الدلالات على أحقيّة الحقّ، ومحصّلات العلم النافع، والفرقان بين الخير والشرّ، والصدق والكذب، والحقّ والباطل، وكل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ أي تستعملون فكركم في فرك هذه الأمور، والبحث فيها بحركة وجولان للقوّة الإدراكيّة؛ من المطالب إلى المبادئ، ورجوعها من المبادئ إلى المطالب، والغاية من ذلك إدراك الأسرار، وتحصيل علم زائد عن العلم الحاصل من فهم الخطاب أولاً. بعدها ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ختمت الإجابة ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ أي يستحضرون ما أمروا به، فيعملوا اتّقاء للعقاب، ثمّ يتفكّروا اتّقاءً لأحكام الله، ثمّ يبيّن لهم كي يتذكّروا ما علموه أولاً. وبعدها ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، بعد الإجابة كان

تفصيل أحكام الطلاق ثمّ ختمت ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فجعل الله بيان حدوده خاصاً بأهل العلم بأحكامه، لأنّه يحب من يتعلّم حدوده، ومن يعلمها هو من يفهم وجه الحكمة منها، وهذا حاصله زيادة علم، وهداية من الله تعالىٰ بعد التذكّر. بعدها أحكام المطلقة والأرملة، ثمّ ختمت ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]؛ أي عقل حدوده بفهمها، ومعرفة المقصود، والعمل بمقتضاها.

فالترتيب في مستويات من كان غرض التبيين للآيات موجّهاً لهم كان كالآتي: المتّقون، المتفكّرون، المتذكّرون، العالمون ثمّ العاقلون، مثلها في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية: ٣ - ٥]، بعدها ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣]؛ وهذا هو مبدأ الحجاج؛ أي الكون مسخّر ليتفكّر به فيؤمن بذلك الإنسان. قال السعديّ: قسّم تعالىٰ الناس بالنسبة إلىٰ انتفاعهم بآياته إلىٰ قسمين: قسم يستدلّون بها ويتفكّرون بها وينتفعون، وهم "المؤمنون" بالله إيماناً وصل إلىٰ درجة "اليقين"، فزكّىٰ منهم العقول، وازدادت معارفهم، وقسم يستكبرون، ويسمعون آيات الله ثمّ يُعرضون.

فالتعقّل في القرآن الكريم هو أعلىٰ درجات وصول العلم، لأنّ بعده العمل؛ وهو مقترن به، فالنفس أو القلب تصل إليها الخواطر والأحاسيس والشعور، ثمّ يكون الفكر بتقليب المعلومات والنظر فيها وتأمّلها، بعدها

يكون فهمها وفقه المراد، ثمّ عقلها بأن تحبس في النفس المدركة وتنتقل إلى الإرادة لتعقّلها عن العصيان وتلزمها بالطاعة، قال ابن تيميّة: "العلم والعمل الاختياريّ أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصوّر المراد، فلا بُدَّ أن يكون القلب متصوّراً"، والعقل في القرآن الكريم لا يرد ممدوحاً؛ إلا في مقام العمل بعد العلم، وإلا مجرد العلم من غير القيام بمقتضاه يعد نقصاً في العقل. والغاية من العلم ليس الترف المعرفيّ بل التطبيق العمليّ. فكان كلّما أمر وبيّن الله آياته وصف عباده حسب درجة الاستفادة من البيان؛ وكان أعلاها عقل ما بَيَّنَه، وذلك باستيعابه وتمييزه، ثمّ عقل النفس حسب مقتضى البيان؛ فتمنع عن مخالفة الأوامر؛ وتمنع عن ارتكاب النواهي.

كلما ذكر الله تعالى التعقل بصيغة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ كان العقل إما: لحدود الله تعالى وأحكامه؛ بوعيها والعمل بمقتضاها، أو لِمِنَنِهِ وما سخّر لعباده من أمور مختلفة ومتنوّعة. فكان لا بُدَّ من مقابلة الخير النازل من الله تعالى؛ بمنع النفس عن العصيان، وإلزامها بالطاعة لمن يرزقها ويحسن إليها. فكل سياقاته ورد فيها ذكر مسخّرات الأرض والسماء، من طعام، وحيوان، ووسائل نقل ومزروعات، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: ١٢]. أمّا إذا ذكر التفكّر فيوجَّه نحو الحركة والاختلاف والتنوع، بينما يذكر العقل في مقام الامتنان على العاقل؛ ليُلزَم طاعة من سخّر له ما في الأرض لخدمته. وبيْن التعقّل وغيره فروق؛ تلاحظ في سياق الآيات التي تتابع، فغالباً يبدأ بالإيمان،

ثمّ السماع، ثمّ التقوى ثمّ التفكّر ثمّ التذكّر ثمّ العلم ثمّ التعقّل.

وظيفة التعقّل -كما يبين القرآن- هو القياس والتعميم، لذا كان ضرب الأمثال للعقلاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣]؛ والتعقّل دوره لاحق بعد الاتصال بالواقع الذي يتمّ عبر الحواس، فإذا تعطّل الإحساس تعطّل التعقّل قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]؛ تعطّل لكل طرق الإحساس فكانت النتيجة ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]. أما التفكّر فهو: تفعّل من الفكر؛ وهوكل ما وقع في خلد الإنسان وقلبه، فالاسم الفِكْر والفكرة، والمصدر الفَكْر-بالفتح-، والفعل التفكّر؛ وهو تفعّل الفكر مع تأمّل. وقيل هو تردد القلب في الشيء حتى يستقر؛ أي قوّة مهيّأة للعلم، تؤدّي إلى الوقوف على المعاني المقتضية للسكون؛ فهي جولان القوّة المدركة بحسب النظر، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال فكر إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب؛ فهو تصرّف للقلب بالنظر في الدلائل، فيما يمكن أن يحصل له صورة فيه. ولم يرد لفظ المصدر منه في القرآن، بل ما تصرّف من أفعاله في ثمانية عشر موضعاً. فالتفكّر وظيفة للجهة المدركة في الإنسان؛ بالتركيز على التفكّر في أمور لتحصيل المعرفة، ولكنه يتميز بالدقة، ويحتاج إلى التدرّج في استنتاج العلم، ويحتاج إلى الحواس واليقظة في الفطرة للعلم الضروريّ، ويحتاج كذلك إلى التذكّر، فهو عمليّة عقليّة بحتة تستلزم البحث والدرس والتقصي.

ولا يكون الفكر إلا إذا استحكمت اليقظة؛ فتوجّب الفكر بتحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له؛ أي التماس العقل المطلوب بالتفتيش

عليه. قال ابن القيّم: الفكر فكرتان: فكرة تتعلّق بالعلم والمعرفة؛ وفكرة تتعلّق بالطلب والإرادة. فالتي تتعلّق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحقّ والباطل، وبين الثابت والمنفيّ. والتي تتعلّق بالطلب والإرادة: هي الفكرة التي تميز بين النفع والضار. ثمّ يترتّب عليها فكرة أخرىٰ في الطريق إلىٰ حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلىٰ ما يضرّها فيتركها. فهذه ستة أقسام لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء.

فالتفكير هو طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم؛ من أمر هو حاصل منها: هذه هي حقيقته، فإن لم يكن ثمّة مواد تكون موارد للفكر؛ استحال الفكر، لأنّ الفكر بغير متعلّق متفكّر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكّر فيه. فإذا عُرف ذلك؛ فينتقل المتفكّر من المقدمات والمبادئ التي عنده؛ إلىٰ المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصّل له تذكّر به، وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، والتذكّر هو مقصود التفكّر وثمرته.

وجاء الأمر في التفكّر في كتاب الله بصيغ مختلفة وهي: يتفكّرون، تتفكّرون، تتفكّروا، يتفكّروا وفكر. باستقراء الآيات التي ورد فيها تلك الصيغ نلاحظ ما يأتي: جاءت الدعوىٰ إلىٰ التفكّر في آيات الله الكونيّة في عدّة مواضع منها ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وجاءت الدعوىٰ إلىٰ التفكير في حال النبي ﷺ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وفي الأنفس ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، وفي من مضىٰ ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]،

وفي الأمثال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١] وجاءت بالدعوى إلى ضرورة التثبّت والاستفادة من الآيات البيّنة لمعرفة العواقب وفهم النتائج والتمييز بين النافع والضار. وتدعو أغلبها إلى التفكّر في ميدان الأنفس والآفاق؛ أي الآيات الكونيّة؛ وتشمل أسرار الأنفس، والسنن الاجتماعيّة، وتاريخ الأمم وقصصهم، مثال ذلك ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١] فهي آية لمن ينتفع بها، ويتفكّر فيما ينشأ بين الزوجين من علاقة لا تكون مع غيرهما.

فالتدبّر: وهو تصرّف القلب بالنظر في الدلائل، مثل التأمّل وهو استعمال الفكر مع تمهّل. فالتدبّر في الأمر: أن تنظر إلى ما يؤول إليه في عاقبته. وقد ورد التدبّر في القرآن الكريم بصيغة الفعل "يتدبّرون" يدبّروا"، كلها التدبّر في الآيات المتلوّة؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد: ٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. قال الزمخشريّ: تدبُّر الأمر تأمّلُه، والنظرُ في أدباره؛ وما يؤول إليه في عاقبته، ومنتهاه، ثمّ استعمل في كل تأمّل، فمعنى تدبّر القرآن تأمّل معانيه وما فيه. فهو وظيفة للجهة المدركة في الإنسان؛ ولكنه تفكير عميق مع ما يتبعه من تعقّب لأدبار الأمور ونتائجه، وثمرته التذكّر وبلوغ مرتبة أولي الألباب؛ بذلك يكون التدبّر درجة أعلى من التفكّر وأدنى من التذكّر.

والتفقه: من الفقه وهو الفهم بالعلم والحذق في الصنعة اللفظيّة؛ والبيان. وهو العلم بمقتضى الكلام مع تأمّله؛ لذا أطلق على فهم الخطاب الشرعيّ "الوحي"؛ ومعرفة مقتضاه عن تأمّل (علم الفقه). قال ابن دريد: رجل فقيه: عالم، وكل عالم بشيء فهو فقيه، وغلب الفقه على علم الدين؛ لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم، وتخصّص بعلم الفروع في الشريعة. وقد ورد في القرآن الفعل لا المصدر، وكانت دلالاته على أنّه أخصّ من الفهم ومن العلم ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨]؛ فهو توصّل إلى علم غائب بعلم شاهد. وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٨].

والتفقه أعلى من الفهم، لأنّ الفهم شرط في قيام الحجّة غير أنّ الفقه ليس شرطاً، فكان عدم فقه الكفّار والمعاندين كلام أنبيائه ليس دليلاً على سقوط التكليف عنهم ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، فقوم شعيب فهموا خطاب نبيّهم عليه السلام بدليل قولهم له قبل ذلك ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧]، فقولهم ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي لا نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة. فهم لم يقتنعوا بوجه الحجّة، ولم ينفذوا بفكرهم إلى علّة صحّة ما يقول؛ مع فهمهم كلامه وقوّة حجته، وذلك كان على وجه التضجّر من نصائحه ومواعظه، وعدم فقههم؛ لبغضهم لما يقول ونفرتهم عنه." وكان الحاجز النفسيّ مانعاً للانتقال من درجة الفهم إلى درجة الفقه؛ أي الوقوف على المعنى الخفيّ

المتعلق به الحكم، بتعقّل وعثور يعقب الإحساس والشعور.

ورد فعل التفقه على تصاريف وهي: تفقهون، نفقه، يفقهوا، يفقهون، يفقهوه، يتفقهوا، باستقراء الآيات نلاحظ: أن التفقه يكون للكلام والقول والحديث ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨]، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النساء: ٧٨]. والتفقه من أعمال القلب ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ونتيجة الطبع على قلب الكافر والمعاند هي عدم الفقه ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التوبة: ٨٧]؛ فخصّ القرآن الطبع بعدم التفقّه. ومثله الأكنّة ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، و﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الإسراء: ٤٦]، وفي الكهف ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]؛ والأكنّة هي الأغطية.

ووظيفة التفقّه أعمق من الفهم والإدراك كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقد ورد التفقه على أنّه وظيفة تحصيل؛ أكثر منها وظيفة نظر وتفكّر؛ أي هو هيئة حاصلة للإنسان بعد نشاط فكريّ، وخصّ بالدين في القرآن الكريم ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فالتفقه هنا التخصّص في تعلّم الدين. وهنا لا فرق بين الفقهين الأكبر والأصغر، قال السعديّ: "وفي هذه الآية دليل وإرشاد لفائدة مهمة، وهي أنّ المسلمين ينبغي لهم أن يعدّوا لكل مصلحة من

مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفّر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت لغيرها لتقوم مصالحهم وتتمّ منافعهم. قال الغزاليّ: "كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال.. وكان لفظ الفقيه لا يطلق قديماً إلا على من كانت لديه ملكة تساعده عليها فطرته وممارسته، فيستطيع بها أن يستنبط الأحكام الشرعيّة في الأمور العمليّة من أدلّة الشرع وأمارات الأحكام، فكان لفظ الفقيه يساوي لفظ المجتهد، ثمّ على كل من اشتغل في الفقه؛ وحفظ الفروع."

أما التبصّر فهو من البصيرة؛ وهي فطنة تمنع الإنسان من الغفلة، وبصر المتعدّي بالباء يؤدي معنى عليم. فالبصيرة هي قوّة مدركة في القلب وجمعها بصائر. فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب؛ يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل؛ كأنه يشاهده رأي العين: فيتحقق انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم؛ وهذا معنى قول بعض العارفين: "البصيرة" تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به. وقال بعضهم: "البصيرة ما خلصت من الحيرة إما بإيمان؛ وإما بعيان. وهي على ثلاث درجات: الأولى: أن تعلم أن الخبر القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لا يُخاف عواقبها، فترى من حقه أن تؤديه يقينا؛ وتغضب له غيره. والثانية: أن تشهد في هداية الحق وإضلاله إصابة العدل، وفي تلون أقسامه رعاية البر، وتعاين في جذبه حبل الوصل. والثالثة: بصيرة تفجر المعرفة، وتثبت الإشارة، وتنبت الفراسة. وهذه تتفجر بها ينابيع المعارف من القلب، ولم يقل "تفجر العلم"؛ لأن المعرفة أخص من العلم عند القوم، ونسبتها نسبة الروح إلى العلم، فهي روح العلم ولبه.

والبصيرة تكون للآيات المشاهدة ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦-٨]؛ فالتبصرة آلة البصر، والعبد إذا أناب بقلبه إلى ربه؛ أبصر مواقع الآيات، ثمّ يبصر القلبُ الحقَّ بقواه الإدراكية، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، والعبرة لا تكون إلا لمن يبصر محلها؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾ [آل عمران: ١٣]؛ فأولو الألباب نصيبهم التذكر، وأولو الأبصار نصيبهم الاعتبار "﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

والنظر: نظر في الأمر بالبصيرة والقلب على سبيل التفكر؛ والإحاطة به حفظاً؛ وإظهاراً لصوابه؛ بالمناظرة والرأي والحسن. وهو كقوّة إدراكية؛ هو ترتيب أمور معلومة؛ على وجه يؤدي إلى استعلام ما ليس بمعلوم. فقيل: النظر عبارة عن حركة القلب لطلب علم من علم. وفي مراتب وصول العلم إلى النفس نجد: الفهم وهو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والإفهام إيصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع.

والفكر: حركة النفس نحو المبادئ والرجوع عنها إلى المطالب. والنظر: ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة، فالنظر إقبال على الشيء بالبصر، وعلى الأمر بالقلب؛ والرؤية إدراك المرئي، وإمهالُ النظرِ تأملٌ ورويةٌ. وأكثر ما جاء من مادّته في القرآن كان عن البصر أو البصيرة، لأنهما من مداخل التفكير، والنظر بالبصر المراد منه الملاحظة بالعين والتفكر بالقلب، فليس الأمر بالنظر في القرآن لتسلية الأعين بل لتذكير القلب

وتفكره. واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة وغالب، وفي البصيرة أكثر عند العلماء.

وما جاء في القرآن الكريم كان في الغالب حض على إعمال الفكر في مواطن كثيرة وبصيغ مختلفة؛ منها: نظر: جاء بصيغة الماضي في قوله تعالى ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ [المدثر: ٢١]؛ وننظر، بصيغة المضارع في قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: ٢٧]، جيء به لدلالة التثبت من الخبر قبل إصدار الحكم. وجاء بلفظ: فلينظر، بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر، في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ٥]، وفي كيفيّة الخلق ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس: ٢٤-٢٧]. وبصيغة انظر: في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ ومثله (انظروا). وينظروا: بصيغة المضارع، في الحض على التأمّل والتفكّر في المخلوقات؛ وآيات الله الكونيّة، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وفي آيات الأنفس من أحوال الأمم الخالية العاتية في الدنيا؛ وما كانوا عليه من القوّة والسلطان، ثمّ ما أصابهم من العذاب في الدنيا لعصيانهم؛ وما يلحقهم من العذاب في الآخرة ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

والرأي: قال ابن القيّم: تفرّق العرب بين مصادر فعل الرؤية بحسب محالّها... "فالرؤيا" في النوم... و"الرؤية" في الإبصار، والرأي لما يعلم بالقلب ولا يرىٰ بالعين. ولم يأتِ الرأي بمعنىٰ الإبصار؛ إلا حال اقترانه بقرينة دالة علىٰ ذلك ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ورأىٰ إذا عُدي إلىٰ مفعولين اقتضىٰ معنىٰ العلم، والرأي اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة الظن. وقال بعضهم: الرأي هو إحالة الخاطر في المقدمات التي يرجىٰ منها إنتاج المطلوب. وقد يقال للقضيّة المستنتجة من الرأي رأيٌ، ويقال لكل قضية فرضها فارض رأي أيضاً. وهو أعلىٰ درجة من الفكر وأدنىٰ من الاستبصار.

جاء الرأي في القرآن الكريم بصيغة الإفراد والجمع في حال المخاطبة والغيبة، وبيانه كالآتي: (تر): وهي صيغة خاصّة في القرآن، خاطب بها الله تعالىٰ نبيه في مواضع عدّة، وهي تشمل كل من تبعه من أمته ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، بمعنىٰ ألم تخبر، وبلفظ: (ير): جاءت بصيغة الغائب؛ تنبيهاً للتأمّل في ما حول الإنسان من آيات مرئية تستشعره وتثيره للتفكير فيها، ليعتبر بما يرىٰ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]. و(يروا) و(يرون): كلّها للحض علىٰ إعمال الفكر في آيات الآفاق والأنفس، من أجرام سماوية وآفاق أرضية، والقياس بما يرىٰ ويعاين علىٰ الغائب؛ فكلّها أمثال وصور جُعِلت ليعي الإنسان أنّ ما غاب عنه حقيقة مثل ما هو معاين عنده. قال ابن القيّم:

الرأي في الأصل مصدر رأىٰ الشيء يراه رأياً، ثمّ غلب استعماله علىٰ المرئيّ نفسه، من باب استعمال المصدر في المفعول، كالهوىٰ في الأصل مصدر هوية يهواه هوىٰ؛ ثمّ استعمل في الشيء الذي يهوىٰ، فيقال: هذا هوىٰ فلان. وتفرّق العرب بين مصادر فعل (الرؤية) بحسب محلّها، فتقول: رأىٰ كذا في النوم رؤيا، ورآه في اليقظة رؤية، ورأىٰ كذا -لما يعلم بالقلب ولا يرىٰ بالعين- رأياً، ولكنّهم خصّوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمّل وطلب لمعرفة وجه الصواب؛ مما تتعارض فيه الأمارات. فلا يقال لمن رأىٰ بقلبه أمراً غائباً عنه؛ مما يحسّ به: إنّه رأىٰ. ولا يقال أيضاً للأمر المعقول الذي لا تختلف فيه العقول ولا تتعارض فيه الأمارت أنّه رأىٰ، وإن احتاج إلىٰ فكر وتأمّل كدقائق الحساب ونحوها.

والرأي ثلاث أقسام: رأي باطل بلا ريب، ورأي صحيح بلا ريب، والثالث هو موضع الاشتباه: التذكّر والذكر: الذكر في معناه العام الحفظ للشيء، ومنه الشيء يجري علىٰ اللسان، ويكون الذكر باللسان والقلب، ومن معانيه الصيت والثناء وكتاب الدِّين، والقرآن لشرفه. فالذكر هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أنّ الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر اعتباراً باستحضاره؛ أكان بالتدبّر أم بالنطق أم بالحديث علىٰ هيئة الحكاية. ويقال لحضور الشيء في القلب أو القول ذكر باللسان؛ وكلّ واحد منهما ضربان؛ ذكر عن نسيان، وذكر عن إدامة حفظ لا عن نسيان. وسمّي العلم تذكراً لقوّة الدلائل وظهورها؛ كأنّ ذلك العلم كان حاصلاً؛ وإن بعد حين بما يستعمله من التدبّر والنظر. "فالحافظة" هي

القوّة التي تحفظ ما تدركه القوّة الوهميّة من المعاني، و"الذاكرة" هي القوّة التي تستحضر المعاني التي وَعَتْها الحافظة وتتذكرها.

ويأتي الذكر في عدّة تصاريف، على ستة عشر وجهاً في التفسير، وذلك لضرورة تخصيص الدَّلالة تأديةً للمعنى المراد، ولكنّ كلّ هذه الوجوه فيها استحضار وتدبّر، فقد جاء الذكر دالاً على الطاعة والعفة، والقرآن، والبيان، والخير، والذكر باللسان وبالقلب، والوحي، والعلم، والحفظ والدراسة. والتذكرة ما يتذكر به الشيء؛ وهو أعمّ من الدَّلالة والأمارة كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧٣]. فالتذكر وظيفة إدراكيّة لتحصيل المعرفة، ولكنّه يكون باسترجاع المعاني سواء منها: التذكر للمعاني الفطريّة، أو المعلومات السابقة التي تقرّ بها الفطر جميعاً، ويتناساها الناس في غمرة التحدّي والإعراض والانحراف؛ أو التذكر للمعاني من خلال النظر في الآيات الكونيّة والمتلوّة، والسنن الاجتماعيّة، أو من النظر باسترجاع المعاني، وأخذ العبرة من قصص الماضين. فهو نشاط إدراكي ما بعد التفكّر والتدبّر، ولا يكون إلا للخلَّص وأولي العقول الزاكية.

ويتبيّن أنّ التذكر ورد بصيغ عدّة باستقراء آيات القرآن، وفي سياقات متنوّعة وهي: فقد يرد مع أداتي الحض (أفلا) و(فلولا)؛ في سياق الاستفهام الإنكاريّ للتوبيخ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤]. وإذا ورد اللفظ مسبوقاً بـ"لعلّكم" أو"لعلّهم"؛ فهو للتحقيق وبيان العلّة، كما في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور: ١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ

ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧]. وقد يسبق التذكير البيان والتفصيل ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٠]، ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢٦].

والتذكر خاص بأولي الألباب دون غيرهم ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، فالتذكّر فعل اللبّ وهو خالص العقل. ويكون في آيات الله الكونيّة والمتلوّة ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢]. وفي الآيات المتلوّة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. وكل متذكّر هو متفكّر أو متدبّر ضمناً، ولا يلزم أن يكون كلّ متفكّر أو متدبّر متذكراً؛ لحصر التذكّر بأولي الألباب فقط دون غيرهم. فالتذكّر قرين الإنابة ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر: ١٣]، ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]. والتذكّر مع التفكّر يثمران أنواعاً من المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. ولا يزال العارف يعود بتفكّره على تذكّره، وبتذكّره على تفكّره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتّاح العليم، قال الحسن البصريّ: "ما زال أهل العلم يعودون بالتذكّر على التفكّر، وبالتفكّر على التذكّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت."

والتذكر تفعّل من الذكر، وهو ضدّ النسيان أي حضور صورة المذكور العلميّة في القلب، واختير له بناء التفعّل، لحصوله بعد مهلة وتدرّج، كالتبصّر والتفهمّ والتعلّم. فاختصّ التذكير بأولي الألباب؛ وهم من آتاهم

الله تعالى الحكمة، واختصّ بأهل الإنابة، كما سبق التذكّر التفكّر والتبصّر في الآيات المشهودة؛ والتدبّر لكلام الله تعالى، فيكتسب العبد المنيب التائب إلى الله تعالى صفاء البصيرة، فيبصر مواقع العبر في الآيات المخلوقة والمتلوّة، لأنّ التبصرة آلة البصيرة، والتذكرة آلة التذكر، فيترتّب عن التفكّر والتدبّر التبصرة، ويترتّب عنها التذكّر؛ فتحصل الهداية، فتزيل الإنابة عنه الغفلة فيبصر؛ وتوجب البصيرة حضور الصور الدلاليّة بالقلب؛ فتزول عنه الغفلة فيتذكر. قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣]. والمراد بالتذكّر الأثر النفسيّ والسلوكيّ؛ الذي يثيره أو يحدثه التذكّر لقضية ما من قضايا المعرفة. والمعرفة المرادة هنا هي المعرفة الدينيّة؛ التي أوحى الله بها إلى رسوله، وهو ما جاء بيانه في صدر الآية. والتذكّر هنا هو استحضار المعلومات من الذاكرة، باستخراجها من مخازن المعرفة وإحضارها إلى ساحة التصوّر الحاضر. والناس عند حصولهم على المعارف بطرائقها الفكريّة أو التجريبيّة أو الخبريّة، قسمان: القسم الأول تمر عليه الفكرة، فلا يعتني بها ولا يكترث لها، ويدعها تمر عابرة من غير أن يهتم بنقلها إلى مخازن الذاكرة في نفسه، بسبب إهماله وعدم اهتمامه. وهذا القسم من الناس مسؤول عن إهماله وتقصيره ومؤاخذ عليه.

أما القسم الثاني فيحافظ على المعارف، ويخزّنها بنفسه، وأصحاب هذا القسم صنفان: الصف الأول يستدعي الأول المعلومات من مخازن الذاكرة إلى ساحة التصوّر الحاضر عند المناسبة التي تقتضيها، وهذا هو التذكّر؛ والصنف الثاني يهمل هذه المخازن؛ حتى تكون في زوايا المتروكات

والمهملات أو نوادر الاستدعاء أو في غياهب النسيان.

فاشتغال النفس بما أمرها الله تعالى من تكاليف، وتقيد النفس بأوامر الله تعالى ونواهيه، لا بدّ أن يسبقه عمل القلب وفعله؛ وضمناً هنالك تفكّر وتدبّر وإيمان قبلها، والمداومة على الطاعة إنّما هي للمداوم على التذكّر، فهو محرّك القلب؛ والقلب سيّد الأعضاء ورئيسها، وصلاحه صلاح لها لزاماً، فكلّما كان المدرَك أكثر حضوراً في النفس بالتذكّر؛ كان أكثر تأثيراً فيها وأشدّ في تحريكها نحو الفعل. فمن شغل ذهنه بالآخرة وما يحقّق السعادة الأبديّة؛ كانت جوانب نفسه كلّها مستثارة لتحقيق مطالب الآخرة، والسعيّ إلى إصلاح أعمال النفس ونواياها، حتى تصفى نفوسهم من كلّ غاية غير الآخر وطريق الوصول إليها. وهذا حال الأنبياء، وهو ما خاطب به الله تعالى آخر أنبيائه محمّداً عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ [ص: ٤٥، ٤٧]؛ فالخصلة الخالصة من الشوائب التي اصطفاهم الله بها، وجعلهم بها من المصطفين الأخيار؛ هي أنّ ساحة تذكرّهم دوماً هي الدار الآخرة، وكلّ ما يوصلهم لها من أعمال في الدنيا. فكلّ حركاتهم ونواياهم موجّهة لغاية واحدة، وكلّ أعمالهم للقربى من الله تعالى، حتى بنومهم وقيامهم.

وإنّما يكون التذكر النافع الموجّه للإدارة من المؤمنين المتّقين الحكماء، وهم أولو الألباب، فخلاصة الفكر التذكّر، وخلاصة أهل الفكر أولي الألباب، وخلاصة العقل اللبّ، وخلاصة العقلاء أولي الألباب، قال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ

إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٤ – مجال الإدراك العقليّ في القرآن الكريم:

تبعاً لدور القوّة المدركة في تحصيل المعرفة؛ نجد أنّ التفكّر والنظر أهمّ ما يميّز الكينونة الإنسانيّة المدركة؛ يتعامل مع الكون الذي يعيش فيه، وهو مزوّد بالحواس التي تفتح له آفاق المعرفة لعالم الشهادة، والفكر وهو يتقدم إلى معرفة ما في الكون من محسوسات؛ لا يكتفي بالإدراك الظاهريّ لها؛ وإنما يحكم بوجودها ونهايتها، فتحصل المعرفة بالقوّة الإدراكيّة ونشاطاتها فتعتمد على الحواس، وما ينبني من تراكم معرفيّ، وقوانين تصبح بدهيّة، لفهم ما هو معاين وإدراكه؛ والقياس عليه لإدراك وجود ما لا يعاين في الحال، وهذا ما يصطلح عليه قرآنياً بمجال الشهادة والغيب. فعالم الشهادة عالم فسيح للفكر؛ من خلال ما يتميّز به من معرفة ضروريّة، وقوانين منظّمة لما تسعفه به الحواس، فكلّ ما في العالم مجال للفكر؛ من سموات وما بها من طبقات وكواكب ونجوم، ومن أراضي وما بها من جبال وسهول وبحار وأنهار، والإنسان هو عالم مصغر، فكلّ هذا ميدان للفكر، وهو مسخّر لخدمة الإنسان، ومسخر لفهمه والتفكّر فيه ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

ووجّه الإنسان للتدبّر في آيات الله المتلوّة، وهي مصدر لمعرفة عالم الغيب، وفهمه مع ضبط الفكر، بأن لا يقتحم إلا ما قدر عليه، لذا وجّه الإنسان نحو ما ينفعه، وما هو أهل للبحث فيه، أمّا ما لا طاقة له به؛ فقد بيّن له ما يقدر عقله على استيعابه، وحجب عنه ما لا يؤثّر علمه في المطلوب منه،

ولا يضرّ الجهل به بالمهمة التي خلق لأجلها. فعالم الغيب كقضيّة في مجال الإدراك من حيث المبدأ؛ يعترف بها العقل والفطرة، أمّا تفصيل هذا العالم فليس له طاقة ولا قدرة ولا وسيلة غير الوحي، بينما سخّر له ما يمكنه من التسليم بوجوده. وجاء ليعرض بعض تفصيلاته من غير الخوض في "الكيفيّات" أو محاولة البحث في الماهيات؛ لأنّ القدرات الإدراكيّة في الدنيا غير مؤهّلة لذلك، بل لا حاجة لها بها.

فخصائص العقل: القياس والاعتبار والتعميم والضرورة، وكلّها تبنى إمّا على ما تنقله الحواس أو ما تراكم من معارف ونتائج عمّا نقل تتابعاً عن الحواس. فعدم تحديد المجال الذي يرتاده العقل ويبحث فيه؛ هو أكبر خطأ منهجيّ يرتكبه الباحث في اعتماده على هذه القوّة المعرفيّة، وتحديد المجال الذي ينبغي أن يعمل فيه العقل؛ متوقف على النظر في حدود طاقته وإمكاناته؛ حتى لا يخوض في بحث يخرج عن إطار طاقته ويفوق إمكاناته.

فطاقة العقل وقدرته الذهنيّة محدودة، ولا يستطيع أن يتعقّل جميع الأشياء، أو يبحث في جميع القضايا، وكذلك إمكاناته ووسائله محدودة، إذ لا تستوعب قوّتا السمع والبصر مثلاً جميع المسموعات والمرئيات، فعملهما يبقى محدوداً في إطار المسموع والمشهود، والعقل يحكم في القضايا التي يتصوّرها تصوّراً محدوداً في إطار المسموع والمشهود، ويحكم في القضايا التي يتصوّرها تصوّراً تامّاً؛ إذ الحكم على الشيء هو فرع عن تصوّره، وأمّا القضايا التي لم يتصوّرها البتّة، أو كان تصوّره لها ناقصاً؛ فلا يجوز له الحكم عليها لا بالنفي ولا بالإيجاب.

فأهمّ ما يحد من قيمة الحجّاج العقليّ؛ هو قدرته الكبيرة على إقامة الأدلّة لما يعتقده حقّاً وصواباً "إذ لا يعجزه أن يجد الحجج المفحمة المقنعة؛ لإثبات وجهة نظره، وإن لم تكن صحيحة في الأمر نفسه، فهو خصيم شديد العدواة والجدال، مبيّن لأوجه الخلاف والمعارضة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

فلا غرو أن تتفاوت المعارف العقليّة بين الناس؛ لاختلاف القدرات الذهنيّة والإرادات الباعثة على اكتساب المعارف، فمن المعلومات ما هو مشترك بين عامّة الناس وهي قليلة؛ ويرجع غالبها إلى الحسّ المشترك أو الحسّ العام، ومنها ما يكون مشتركاً بين فئات معيّنة، ومنها ما يختصّ بأشخاص معيّنين. وتنقسم هذه المعلومات إلى بدهيّة ونظريّة، ويفتقر النظريّ إلى البدهيّ، ولا يكون البدهيّ من غير إعانة الحواس، كما يستقرّ على التسليم نتيجة التكرار وثبات الحكم دوماً؛ أي أنّ تسليم العقل أنّ "أ" هو "أ"؛ لن يكون إلا بعد تكرار تلقيه لمثال "أ" دائماً هو"أ"؛ فيسلم أنّ "أ" هو "أ" دائماً وأبداً، فيصبح [بدهياً] ومسلماً به دائماً وأبداً، مما يقتضي قانوناً ثابتاً هو" مبدأ الهويّة".

"وكون العلم بدهيّاً أو نظرياً؛ هو من الأمور النسبيّة الإضافية، مثل كون القضية يقينيّة أو ظنيّة، إذ قد يتيقن زيد ما يظنّه عمرو، وقد يبدي زيداً من المعاني ما لا يعرفه غيره إلا بالنظريّ، وقد يكون حسياً لزيد من العلوم؛ ما هو خبري عند عمرو، وإن كان كثير من الناس يحسب أن كون العلم المعيّن ضرورياً أو كسبياً أو [بدهياً] أو نظرياً؛ هو من الأمور اللازمة له

بحيث يشترك في ذلك جميع الناس، وهذا غلط عظيم، وهو مخالف للواقع، فإنّ من رأى الأمور الموجودة في مكانه وزمانه؛ كانت عنده من الحسّيات المشاهدات، وهي عند من علمها بالتواتر من الأخبار المتواترة، وقد يكون بعض الناس إنّما علمها بخبر ظنيّ؛ فتكون عنده من باب الظنيات، فإن لم يسمعها فهي عنده من باب المجهولات، وكذلك العقليّات؛ فإنّ الناس متفاوتون في الإدراك، وللبعض من العلم [البدهيّ] عنده والضروريّ ما ينفيه غيره أو يشك فيه."

فليس هناك قضايا أوليّة عند كل أحد، أو مشهورة عند كل أحد، وإنّما ذلك أمر نسبيّ بحسب أحوال الناس وقوّة التصوّر، فإذا كان تصوّر الشيء تاماً كان يقينياً؛ وإذا كان ناقصاً اعتبر مظنوناً.

فنسبيّة العقول أحد أكبر الأدلّة في تحديد قدرات العقل، وأنّ له مجالاً لا يخرج عنه؛ إذ إنّه عالم الشهادة المخلوق، فلا يدرك العقل إلا ما تنقله الحواس؛ إمّا من الكون المشهود أو من الوحي. وما كان وجوده ذهنيّاً محضاً فلا وجود له بالخارج. وافتراضات العقل مبنيّة على أساس أنه لا بدّ أن يكون محسوساً.